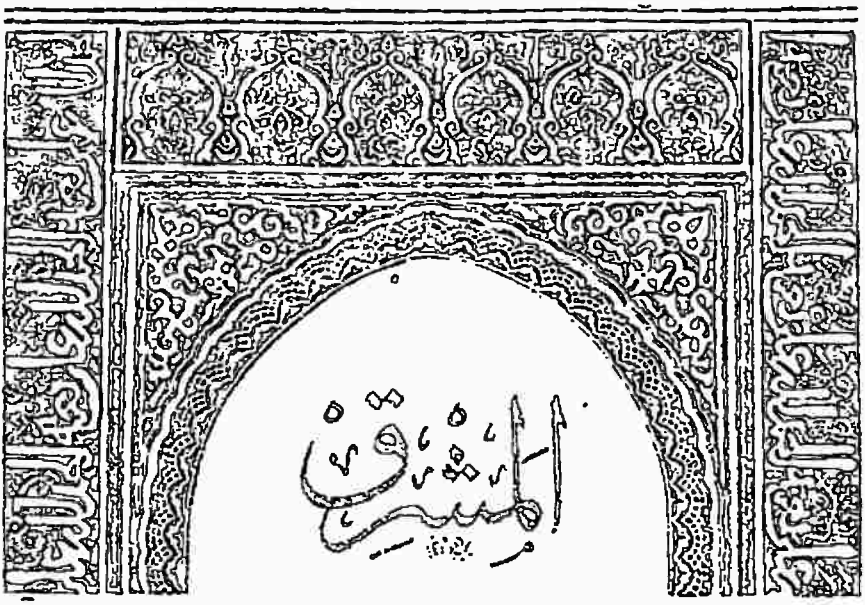

المشرق

آذار ١٩٣١

مسألة الشرّ

نبذة فلسفية

للاب ارمند اودين من جمعية قلب يسوع (*)

توطئة

اي يوم قامت تجاه العقل البشري مسألة الشر المزعجة، فاخذ الانسان في حلّها ؟ ألم يكن ذلك في اليوم عينه الذي دخلت فيه الخطيئة الى العالم، مصحوبة بجملة الشرور التي لم يكن ليختبر الانسان منها شيئاً، لو كان ثبت في البرّ والطاعة لخالقه ؟ أليس وقتئذٍ خطر على بال آدم هذا السؤال : لماذا نشاهد، بل نكابد هذه البلايا، ونتعرّض لهذه المصائب التي لا تزال تتناوب على تعذيبنا الى ان يدركنا ما نحسبه طبعاً اعظم الشرور وارهبها، اي انحلال كياننا وعودة جسدنا الى التراب الذي أُخذ منه؟

*) صحح عبارتها وعني بنشرها على صفحات هذه المجلة القس اسطفان فرحات الراهب اللبناني.

ولماذا امتلأ هذا العالم مضادةً بين ما تشتهي الكائنات تحصيله من الكمال ، وما يحلّ بها من النقائص مع ما يحيط بها من عوامل الفساد والفناء ؟

ولم تزل عقول البشر مشغولة بهذه المسألة الى يومنا هذا ، وكثيرًا ما كتب فيها الفلاسفة على اختلاف مبادئهم ومذاهبهم ، ولا شك ان الوحي الالهي قد اتانا في هذه المسألة — كما في سائر المسائل الفلسفية العالية — بأثمن مساعدة لنفهم ماهية الشرّ فنميّز انواعه ، ونعلّل وجوده ، ونبحث عن اصوله . فقصدنا من هذه المقالة هو ان نجمع اهمّ ما يفيد القرّاء بهذا الصدد ، فنسهل بذلك مهمة من يجب عليهم ان ينيروا عقول المؤمنين في هذا الموضوع ، فيزيلوا من انفسهم كل ظنّ بان وجود الشرور ينافي حكمة الخالق وصلاحه ، ويدل على قصور قدرته ، او نقص عنايته . لان هذه الآراء الباطلة هي التي جلبت على كثيرين شرّ جميع الشرور ، اي فقدان الايمان ، والغرق في لجة اليأس والكفر .

غير ان البحث في اصول الشر وعلله يقلّ نفعه ، ان لم نتبيّن ما هو الشرّ ، وما هي انواعه . لذلك نقسم هذه المقالة الى قسمين : نبحث في الاول عن ماهيّة الشر وما يفيد تمييزه من انواعه . وفي الثاني عن اصول الشر ونسبته الى عناية الله مدبّر جميع الخلائق ومرتب احوالها وافعالها كافةً .

أ

في ماهيّة الشر وانواعه

قد قلنا ان ابانا الاول ، آدم ، اخذ يتأمل في الشرّ يوم رأى نفسه فاقدًا ما كانت يد الله السخية قد زينته به من المواهب . ولكن اذا اعتبرنا ما كانت عليه احوال الكائنات التي اوجدها الله حول آدم قبل معصيته ، نضطر الى الاعتراف بان بعض الشرور كان في العالم ، حتى وفي الفردوس ايضًا حيث شاهده آدم ، فيحتمل كثيرًا انه سأل نفسه حينئذٍ ، كما نتساءل نحن اليوم : ما هي هذه النقائص ؟ ولماذا لم يصنع الله براياه منزّهة عنها ، بل كاملة من كل جهة ؟

فلايضاح ذلك اعتبر اولًا : ان الشر ليس سوى سلب الخير ، او الخلوّ

احدى الارزات القديمة

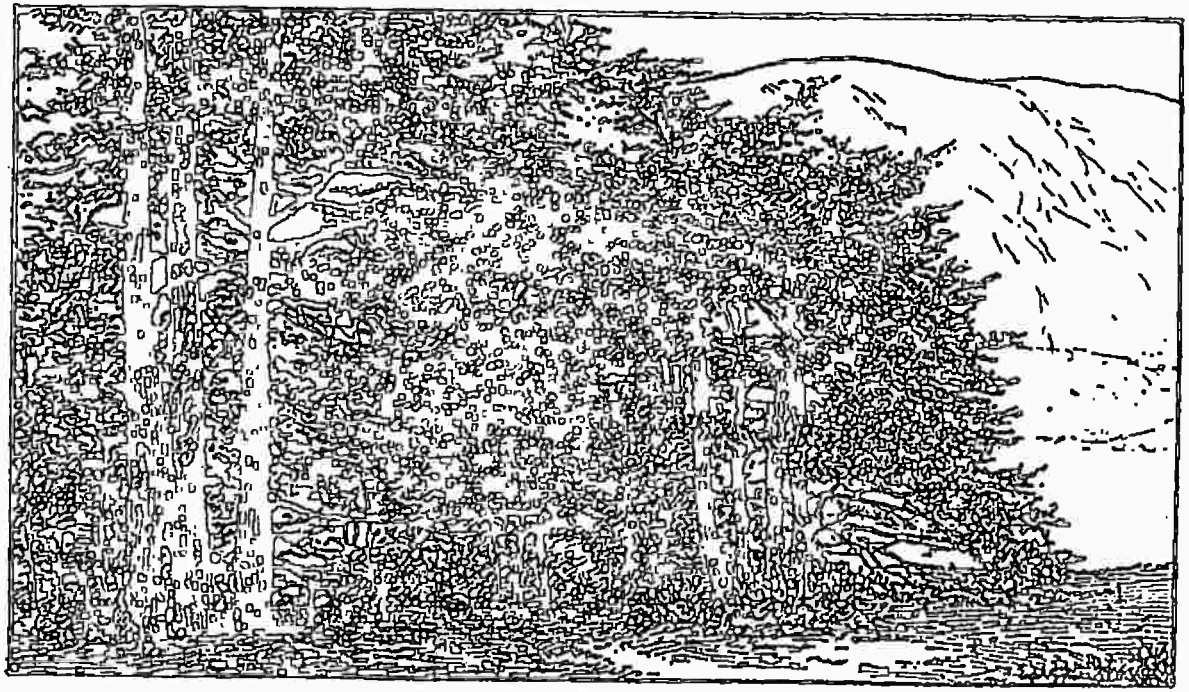

بعض ارزات حديثة

منه ، ولكن ليس كل خير يُدعى الخلوّ منه شرًا . بل ذلك الخير وحده الذي يُحسب ملائمًا لطبع الشيء الخالي منه ، ولازمًا لبلوغ غايته . فهما خلا الانسان من كمال الطبيعة الملائكية فلا يقال : ان هذا فيه شر . اما اذا فقد الرشد ، او صارت ارادته معوجة ، فلا شك في كون هذا شرًّا . وعدم استطاعة الانسان على الطيران مثل العصفور ، او على الركض مثل الأيل ، ليس فيه شرّ . اما اذا اضحى اعمى ، او اصمّ ، او مخبلًا ، فلا يُرتاب في كون حالته هذه هي شرّ ، فحدّد من ثمّ الفلاسفة الشرّ قائلين : هو خلوّ الشيء مما يلزمه من الكمال . فكلما نقص كمالٌ او خيرٌ شيئًا تقتضيه طبيعته ليحصل على غايته ، قلنا : ان في ذلك الكائن شرًّا .

تأمل في ما كان حال الفردوس الذي وضع الله آدم فيه ، كما في مسكن فخم معدّ له ، فانه كان هناك عدد عظيم من الحيوانات والنباتات على اختلاف انواعها ، وكانت الحيوانات ثمّ ، كما نراها اليوم ، محتاجة الى الاغتذاء بكل النباتات ، وكان يقتل بعضها بعضًا ؛ ولا شك ان النبات الذي يلتهمه الحيوان ، يصيبه نوع من الشرّ ، لان طبيعته كانت تطلب المحافظة على حياته وعلى سلامة اعضائه . وقل كذلك عن الحيوان الذي يهاجمه حيوان آخر اقوى او امكر منه ، فيتغلّب عليه ويقتله ليغتذي بلحمانه ، واذن فيظهر ان عالمنا هذا كانت فيه شرور دائمًا ، منذ خلق الله النبات والحيوان . ويتضح من ثمّ ان آدم علم شيئًا من الشرّ قبل سقطته الاولى .

تصوّر الآن ما جرى في عقل آدم ، لما سمع كلمة الله القائل له : « لا تأكل من شجرة معرفة الخير والشر ، فانك يوم تأكل منها موتًا تموت » (تكوين ٢ : ١٧) فاول شيء نستدلّ عليه من هذا الكلام ، هو ان آدم كان حينئذٍ يدرك معنى لفظة الشرّ ، واذن فلم يكن يجهل الشرّ . ثم لاحظ ، ايها القارئ اللبيب ، ان آدم فهم من الكلام عينه انه من باب الممكن ان يصير هو نفسه محلًّا لبعض الشرور ، لا بل لاعظمها ، الذي هو الموت . ولكن هل انحصر في ذلك ما ابانه تهديد الله بالموت لآدم ، ان اكل من الثمر المحرَّم ؟ كلّا ، فانه تعالى نوى بكلامه هذا ان ينبّه آدم الى ما يصيبه من العقاب اذ

خالف ارادة مولاه . والعقاب لا يفهم ان لم يسبقه ذنب . فبان اذن لعقل آدم ، انه يمكن ان يعي تصرّفه في حرّية الارادة التي ازدانت بها طبيعته الناطقة ، فيعصي ربّه الاعظم صائرًا بذلك محلًا لشرّ جديد ، لم يكن بعدُ ظهر في الدنيا ، الا وهو الذنب او الشرّ الادبي ؟ نعم ان هذا الشر كان قبل ذلك الوقت ، قد ابتدأ بالوجود بين الملائكة ، فان آدم لم يتقد الى ذنبه الا بتجربة واغراء من بعض الارواح التي سقطت بتمرّدها ، وهي الشياطين . ولكن لا شيء يدلنا على ان آدم قبل خطيئته علم حال الشياطين . ولهذا نقول انه ادرك طبع الشرّ الادبي ، كأمر ممكن الحدوث لا غير .

فترى من ذلك ان الشرّ تراءى لذهن آدم ، اولًا كحادث طبيعي ينتج لا محالة من ماهيات الاحياء التي يقتضي تنوّعها ان يحارب ويقاتل بعضها بعضًا ، وان يغني اقواها اضعفها ، وهذا هو الشر الذي نسميه شرًّا طبيعيًا . ثانيًا ظهر لعقل آدم ان ما شاهده من ذلك الشر في المجاوات ، مع ما يقترن به من الوجع ، يمكن ان يصيبه هو ايضًا ، وذلك بحكم من الله الذي يرتب هذا الشرّ لمعاقبة الانسان ، إن أبى العبادة ، والطاعة الواجبتين عليه لالهه . فهذا هو الشرّ الطبيعي الحالّ في الخليقة الناطقة ، وهو بذاته غير مختلف عما هو في الخلائق الغير الناطقة . لكن هذه تتعرّض له بمجرّد طباعها والنظام الذي اقامه الله بين انواعها . اما الانسان فيصيبه هذا الشرّ على مقتضى العدل الالهي كتبعة لمعصية الانسان ، ولهذا يُدعى هذا الشر الطبيعي ، الذي اصبحنا له عرضةً بالخطيئة ، شرّ عقاب او قصاص . ثالثًا واهمّ ما انكشف لعقل آدم هو ماهية هذا الشر ، الذي لا يمكن حلوله ، الا في الخليقة الناطقة ، لقيامه بعدم خضوع الارادة المخلوقة الحرّة لارادة الخالق الاسمى ، وهو المعروف بالشرّ الادبي .

واذن فقد بيّنتُ لك بايجاز الكلام ، ما هو الشرّ على وجه العموم ، وكيف ينقسم الى انواع مختلفة ، وقد مرّ بك ان حقيقة الشرّ تقوم بخلوّ كائن من كمالٍ لازم له . ثم ان بعض الشرور تحصل من نظام الطبيعة ، ومضادّة بعض انواع الكائنات للبعض الآخر ، وهو ما نسميه شرًّا طبيعيًا .

ويتميز عنه الشر الادبي ، الذي لا مبدأ له سوى ارادة الخليقة الناطقة ، وهو القائم بعدم خضوع هذه الارادة لمشيئة الله . ثم ان الشر الطبيعي كلما حلَّ في الخليقة الناطقة كعاقبةٍ للشر الادبي ، واصلاحاً للنظام الذي اخلَّت به الارادة، يُدعى عقاباً او قصاصاً .

لكنه يفيد ان نزيد ايضاحاً لما يوجد من الفرق بين الشرّ الطبيعي والادبي ، لنفهم لماذا اجمع ارباب علم اللاهوت على ان الشرّ الادبي يفوق الطبيعي فظاعةً بما لا حدَّ له ، بحيث يجب ان نفضل احتمال الشرور الطبيعية ، مهما كثرت وعظمت ، على الانقياد الى الشر الادبي باقتراف خطيئة مهما كانت خفيفة . فاعلم ان مبنى هذا الحكم يؤخذ من اعتبار نسبة المخلوقات الى الخالق . فانه تعالى هو نفسه الغاية القصوى التي تُرتَّب لها الخلائق قبل ، وفوق كل ما سواها . ومن ثمَّ أول خير يلزم وجوده في الخلائق هو انها تمجد باريها بانجاز مشيئته بالطريقة الملائمة للطبع الذي اعطاه لكل واحدة منها . وهذا ما تخالفه الخليقة الناطقة كلما كان فيها شيء من الشرّ الادبي . لان هذا الشر ينافي خضوع الارادة المخلوقة لمشيئة الله . وهذا الخضوع هو الطريقة المناسبة لطبع الكائن الناطق لتمجيد الخالق . واذن فان الخليقة الناطقة تفقد بكل شر ادبي ، اول خير يلزم وجوده فيها . وليس الامر كذلك في الشر الطبيعي ، فانه لا ينافي سوى بعض الخيرات الثانوية التي يكون خسرانها اكثر جوازاً واحتمالاً من عصيان الارادة المخلوقة على ارادة الله . ولهذا يحسب دائماً الشرّ الادبي اشنع وابعد عن الاحتمال من الشر الطبيعي ايًّا كان . وهكذا يحكم كل عاقل ان الشر الادبي ، دون ما سواه ، هو عيب وشين في حياة الانسان . وان شرفه وفضله يقومان باستعداده الثابت لايثار مكابدة انواع الشر الطبيعي كلها ، على ان يدنس نفسه بالشر الادبي .

وتكميلاً لما قيل في الشر الطبيعي ، لاحظ ان فيه درجات متفاوتة جداً كتفاوت اصناف الكمال ، التي تنافيها الشرور المختلفة ، فلا ترتاب مثلاً في الحكم ان فقدان الانسان رشده هو شر اعظم من خسارته ماله . لكون كمال العقل انفس من الغنى المادي باضعاف . وكذلك ان العمى في الانسان

هو شر اكبر مما هو في الحيوان ، لانه بقدر ما طبيعة الانسان هي اشرف من طبائع البهائم ، يكون خلوها من بعض خواصها اشد مضادة لما ينبغي وجوده من الكمال في جملة المخلوقات . فيجوز اذن ان نقول ان شراً يحسب اعظم من غيره من وجهين : الاول اهمية الخير الذي ينفيه . ثانياً شرف الكائن الذي يخلو من بعض ما يقتضيه طبعه من الكمال .

ولا يخفى ان المصنوعات هي ايضاً محلٌّ للشر . فانها قد تخلو من الكمال اللازم لبلوغ غايتها . كما لو كان بيت اضيق مما تستلزمه سهولة المعيشة فيه ، او كان قليل النور . فاننا لا نرتاب في القول ان فيه شراً . ولا يختلف هذا الشر الذي في المصنوعات عن ذلك الذي في الطبيعيات . فيدعى ايضاً شراً طبيعياً .

لكننا بكل ما تقدم لم نجاوب بعدُ على سؤال قد شغل كثيراً عقول المفكرين ، ألا وهو : هل للشر وجود حقيقي في الاشياء ؟ ام في عقلنا فقط ؟ ولا يعسر الجواب ، اذا اعتبرت ان الشر ليس سوى خلو كائن من الكمال الملائم له . فليس اذن الشر شيئاً حقيقياً ، بل نفي شيء حقيقي . وهو من باب الاشياء التي يتصورها عقلنا ، ويحملها على الموجودات ، غير ان حقيقتها كلها هي قائمة بسلب ، نحو العمى والصمم والجهل والجمود وما اشبه . وقد سمّى الفلاسفة مثل هذه الاشياء كائنات اعتبارية ، ولا شك في كون الشر من جنسها .

ولكن يحدث ايضاً ان اسماء بعض الاشياء تغيّر معناها ، فتنتقل من مسماها الاول ، الى ما يشبهه او يحدثه او يرتبط به ، كما نراه في الالفاظ التي يدعوها ارباب المنطق مشككات او ملتبسات . هكذا اسم الشرّ فهو مشكك ، لانه ، زيادةً على معناه الاصلي المارّ ذكره ، قد يتخذ للدلالة على ما يتبعه لا محالة خلوّ كائن من الكمال اللازم له . هكذا نقول : ان كل غلط هو شرّ في العقل ، مع ان الغلط ليس هو خلو العقل من الكمال الملائم له ، اي معرفة الحق . لكن الغلط يرتبط بهذا الخلو بمعنى ان من يغلط في امر ما ، فلا يمكن ان يعرف الحق في الامر عينه . وكذلك يقال : ان الغضب الشديد هو شر

لانه ينافي هدوء النفس وصحو العقل ، مع ان الغضب ليس هو الخلوّ منهما ، ولكن هو افعال نفس يتبعه لا محالة هذا الخلوّ ، فقس على ذلك سائر الصفات والحالات ، التي تلاحظ انها قد تسمّى شروراً مع انه يظهر انها لا تقوم بسلب بل بشيء وضعي.

٢

في اصول الشر

لا غرو اذا لقينا من الصعوبة والغموض ، في هذا الجزء ، ما لم نلقه في الاول ، فان اشياء عديدة نستطيع ادراك طباعها ووصف خواصها ، غير اننا نعجز عن اكتشاف مبادئها ، كمن يُشرف على نهر ويتتبع جريان مائه ، لكنه لا يرى قط نبعه ولا يدري اين هو.

واعلم ان الفلاسفة طالما لاحظوا ان الخلائق هي محلّ وعرضة للشر ، من حيث هي مُخرَجة من العدم ، فانها من هذه الحيثية تحصل على وجودها لا وجوباً بل حدوثاً ، وكما انه يمكن عدم وجودها كذلك يمكن خلوّها من بعض ما يختصّ بل الوجود الذي يلائمها . وهذا اول جواب على السؤال: كيف تتعرّض الخلائق للشرّ ؟

اما حلول الشر بالفعل ، في بعض الكائنات ، فيبيّن الاختبار انه ينسب في الغالب الى فاعل او علة محدثه . وهذا يكون على نوعين تندرج تحتهما جميع العوامل التي تحدث شراً بتأثيرها :

النوع الاول : هو العلة الناقصة الفعل ، اي التي لا يكفي تأثيرها لترقية مفعولها الى درجة الكمال الملائمة لطبعه والمناسبة لغايته ، كالصانع الذي كلما قلّت مهارته في صناعته ، او نقص اجتهاده في ممارستها ، خلا مصنوعه من الكمال الواجب ، ويكون فيه شرّ . وكذلك قد ينسب جهل التلميذ الى عدم فطنة مهذّبه ، او قلّة اهتمامه وحزمه . ومن لم يبذل قصارى جهده في ترويض نفسه على الفضائل ، فلا يزال خالياً منها ، وهذا شرّ عظيم منسوب الى نقص فعل الانسان.

النوع الثاني: هو العلة التي تطبع بتأثيرها صورة تضاد الصورة التي يقتضيها كمال الشيء المطبوعة فيه. ويهون ادراك ذلك في هذه الامثال. اذا كنت في وسط هواء بارد جداً تفقد الحرارة اللازمة لراحة جسدك، فهذا شر منسوب الى الهواء الذي يحدث فيك البرد المضاد لتلك الحرارة. واذا صدقت خبراً غير صحيح، كان هذا شراً منسوباً الى من اسمعك ذلك الخبر، فولد في عقلك بكلامه رأياً مخالفاً للحقيقة. ومن تعود بعض الرذائل، يخلو مما يضادها من الفضائل، وهذا ايضاً شر جلبه الانسان على نفسه من حيث أصل في ذاته الملكات المنافية تلك الفضائل.

اما الشر الذي في المصنوعات فلا يجب ان ينسب دائماً الى علة فاعله سواء كانت من اول النوعين المذكورين او من ثانيهما، فانه يحدث ايضاً ان تحل نقائص في بعض المصنوعات لمجرد مقاومة المادة لتأثير الصانع مهما كان ماهراً، واجتهد في اتقان عمله. فتصور مثلاً ما يجري اذا أمر نجار بصنع مائدة من خشب فاسد وناخر، او اذا طلب من نحات ان يعمل تمثالاً من حجر غير ملائم يتفتت تحت كل ضربة من المنقاش، فيكون المصنوع من كلتا الحالتين ناقصاً في جماله ومتانته، فينسب هذا الشر عندئذ الى المادة لا الى الصانع.

فهذا ما تهمنا معرفته بخصوص علل الشرور التي نشاهدها في الكائنات الغير الناطقة، اما الشرور التي تحل في الانسان فانها تستحق اعتباراً خصوصياً، حتى نعلم ما هو مصدرها واصلها، فتذكر ما قيل آنفاً في الشر الادبي، وما يلحقه من الشر الطبيعي الذي يُدعى عقوبة. وعلة الشر الادبي ما هي الا ارادة الانسان الحرة التي ابت الخضوع لمشيئة الله، ويتحقق فيها ايضاً ما قد مرّ تبيانه من جنسي العلل التي تحدث شراً بفعلها. اي ان ارادتنا قد تكون مصدر شر ينقص فعلها الذي فيه من الجد ما ينبغي ان يكون. ومن هذا الباب الخطايا التي اصلها الفتور والتقصير والرخاوة وما اشبه. وتكون الارادة مرات اخرى منجم ذنوب، بالتفاتها الى مواضيع تضاد ما يجب ان توثره وتختاره. وهذا ما يحصل حينما ينقاد الانسان الى نيات ذميمة ومقاصد مخالفة الشريعة الالهية. ثم لا يخفى ان علاً عديدة قد تجر الارادة الى اقتراف

الخطايا . منها ما في داخلنا ، كالغلط والجهل من جهة الذهن ، والشهوات من جهة جزء طبيعتنا الحيواني . ومنها ايضاً ما يصيبنا من الخارج كالامثال الرديئة واقوال الخبثاء الحاثين على المنكرات ، وما في بعض المحسوسات من القوة الجاذبة ، كاجتذاب الخمر للشريب والدراهم المعروضة في مكان مخبوء لمن اعتاد السرقة . فتكون هذه الاشياء كلها عللاً الشرّ الادبي . ولكنها ثانوية بالنسبة الى الارادة التي هي دائماً مبدأه الاصلي والرئيسي .

اما العقاب ، فجليٌّ انه يُعزى الى ذلك الذي يختصّ به الحكم بانزاله ، وهو الله تعالى نفسه . نعم ان كل رئيس يشترك في هذه السلطة ، ومن فروضه ان يحكم على مخالفي الشرائع من مرؤوسيه ، فيعاقبهم وفقاً للشرائع عينها ، الا ان هذا العمل عمل العدل المعاقب يختص اولاً واصالةً بالله سانّ الشريعة الطبيعية ، وصائن النظام العمومي الواجب ان يحفظ في كل العالم ، ولهذا لا ننسب ما يصيبنا من انواع القصاص الى بعض البرايا إلّا من حيث نعتبر هذه في يد العدل الالهي كآلات يستخدمها عزّ وجلّ لتنفيذ احكامه ، ويعين طبائعها وكيفية تأثيرها فينا حتى يكون القصاص موافقاً لمقتضيات العدل مع ما تقترن به من مقاصد الرحمة . وهذا اذا تكلمنا عن عقوبات هذه الدنيا حيث يمتزج دائماً عمل العدل بتأثير الرأفة خلافاً لما يكون في الآخرة حيث يملك العدل وحده ، ويستوفي مطاليبه بتمام الدقة والشدة .

فترى من ذلك ان جميع الشرور التي فيها حقيقة العقاب تنسب نسبة خصوصية اليه تعالى ، اما الشرور الطبيعية التي تحتملها الحيوانات والنباتات ، والتي تحصل من نظام العالم ، واختلاف الانواع ، فلا شك في كون الله ايضاً علتها ، ما دام هو مبدئ نظام الطبيعة ومرتب نواميسها ومنشئ كل انواع الكائنات مع ما يلازمها ويلاحقها من الخواصّ . ولا بأس في ان الله هو مصدر تلك الشرور ، لا من جهة منافاتها لبعض الخيرات الجزئية ، بل من حيث افادتها لخير الكون العمومي الذي يتفضّل جدّاً على ما لبعض اجزاء الكون من المصالح الخصوصية ؛ وبكل صواب يشبّه عمل الله في ذلك بعمل البستاني الذي يقلع اعشاباً ويقتل هوامّ ويقطع اغصاناً عديدة ايضاً حتى وفي اجود

الاشجار ، وكل هذا شر لما يُقلع ويقتل ويقطع ، غير انه خير عظيم للبستان كله وشرط ضروري لتكثير ثماره .

اما اذا سألت : ايجوز ان تنسب اليه تعالى الشر الادبي ايضاً ؟ اجبتك مع جملة ارباب علم اللاهوت بالنفي المطلق ، فانه من اشنع التجاديف التي انتقاد اليها بعض المنافقين بقولهم ان الله هو بنوع ما محدث الشرّ الادبي ، او مبدئ الخطيئة . كيف لا وان هذا الشر يضادّ قداسة الله كل المضادة ، ويبعد الخليقة عن الغاية التي خلقها الله لاجلها ، ولا يفتأ يهديها اليها ، الا وهي كمال اتحاد الخليقة الناطقة بباريها وحصولها بالحال على ملء السعادة . فلو كان الله علةً للشرّ الادبي لكان يضادّ نفسه ، وينقض عمله بنفسه . فمحال اذن ان يصدر الشرّ الادبي منه تعالى ، وان ينسب اليه على وجه من الوجوه

الا اننا اعتدنا القول : ان الله يسمح بحدوث الشرور الادبية . أفلا نعني بهذه العبارة نوعاً ما من التأثير يكون الله به محدثاً لتلك الشرور . حاشا ، فان سماح الله بحدوث الخطايا لا يتضمّن شيئاً من التأثير والابداء ، وهذا ما بقي علينا اثباته . ولكون هذه المسألة على جانب من الاهمية ، يحسن بنا ان نخصص لها مقالة نبحث فيها عما هو سماح الله بالشرور وعما يسوغ ان يجاب به من يسأل : لماذا ولاي غاية يسمح الله بما يحيط بنا بل يشرنا من الشرور في هذه الدنيا ؟ وما يؤول بكثيرين الى اقطع الشرور ، اي الهلاك الابدي ، وهو المجيب ، والمنير ، وعليه الاتكال ؟